

سُئِلَ النَّفْسُ

بقلم كولن ويلسن
ترجمة مجالصرع. مجاهد

توج وتضطرب مثل السيارة التي تتسارع عندما يكون المحرك بلا تعشيق. وبدا الأمر بالأحرى كما لو كنت مريضاً من الناحية الجسدية، باستثناء أن الانفعالات هي التي كانت في ثورة. وعندما كان واضحاً أنني لن أشرع في تحسين الموقف بتجاهله، حاولت أن أقوم بانقضاء مباشر، وكبت الشعور الخفيف بقوة الإرادة الصارمة. وتبين لي أن هذا أمر خاطيء، فقد أصبح وجهي ملتعباً، وشعرت بشدة وتوتر بالغين في الصدر، بينما تزايدت نبضات قلبي لدرجة أرعبتني. فنهضت وتوجهت إلى المطبخ وصببت لنفسني كوباً من عصير البرتقال. ثم جلست وحاولت أن أروِّض نفسي كما لو كنت أروِّض حصاناً جموحاً. وبالتدريج بدأت أسيطر على نفسي، وعدت إلى فراشي. وما أن أصبحت في الظلام حتى بدأت العملية من جديد: رعب متزايد، وتسارع في نبضات القلب. وتولاني شعور بأنني واقع في الأحبولة. وفي هذه المرة نهضت وتوجهت إلى غرفة الاستقبال. وبدأت أتساءل عما إذا كنت مريضاً بالقلب. وكان من الواضح تماماً أن هناك (شيئاً ما) فيه خطأ ما. ظلَّ الرعب يتزايد مثل القوي؛ وظل الجزء الهاديء السوي فيَّ يقول إن الأمر محال وإن هناك مشكلة جسدية بسيطة ستحل خلال أربع وعشرين ساعة. وهي مثل الغثيان جاءت على شكل موجات، وكان بين الموجة والموجة شعور قصير بالهدوء والسكينة.

وهذا الهجوم الذي فاجأني يختلف عن الغثيان في أنه ليس له مخرج، وقد جعلني مريضاً. وهذا الرعب تسبب في أن يجعل الطاقة تحتفي مثل اللبن الذي يغلي في قدر صغيرة؛ هناك تأثير مدمر؛ إن القلق يسبب الرعب والرعب يسبب المزيد من القلق ومن ثمَّ فإن الخوف الأصلي أصبح مصحوباً بخوف (من) الخوف. ومن هذه الحالة بدت محاولتي للتحرك لمواجهة الخوف أنه يجب إهالها بمزيد من الخوف. والخوف من الناحية النظرية يمكن أن يتحكم في أية محاولة أبذلها لأتحكم فيه. ومثل غابة من النيران يجب احتواؤه قبل أن يدمر مساحات واسعة من وجودي الباطني.

لقد عايشت شيئاً شبيهاً لهذا الخوف في العشرينات من عمري. ولكن بدون هذا الإحساس بالخطر الفيزيائي. فذات يوم في المدرسة، كانت جماعة منا تتناقش أين ينتهي الفضاء؟ ولقد صدمت عندما أدركت أن السؤال (مستعص على الحل) كما يبدو. كان الأمر أشبه بالخيانة. فلقد صدمني أن عالم الطفل إنما هو قائم على الشعور بأن كل شيء على ما يرام. ثم تنشأ الأزمات،

في الوقت الذي كنت لا أزال أجمع فيه مواد هذا الكتاب، كانت لدي تجربة كريهة، وإن كانت ساحرة وفريدة: فقد كانت هناك سلسلة من هجمات القلق المسعور أوشكت بي على حافة الانهيار العصبي. وما أدعيني أيها دهشة هو أنني لم أياس أو يأخذني الاضطراب في ذلك الوقت. كنت أعمل مجد، ومن ثم كنت واقعاً تحت تأثير درجة كبيرة من التوتر، غير أنني كنت أمسك بزمام الأمور، وطوال الثانية عشر شهراً الماضية كنت منخرطاً في هيئة تحرير لموسوعة عن الجريمة؛ ولما كان كل اجتماع ينفض على غير اتفاق، فقد بدا الأمر كما لو كان يجب أن أتخلى عن المشروع برمته. ثم قرر الناشر - بناء على مذكرة قصيرة - أن يمضي في المشروع قُدماً. وفجأة كان لا بد أن ينتهي كل شيء في أشهر قليلة؛ ثم طلب مني - باعتباري مشرفاً مشاركاً - أن أقدم حوالي مئة مادة - وكل مادة تتألف من ثلاثة آلاف كلمة - بعدل سبع مواد كل أسبوع. وبدأت أدق على الآلة الكاتبة لمدة ثماني ساعات أو تسع ساعات كل يوم، وحاولت أن أسرِّي عن نفسي في الأماسي مع زجاجة نبيذ، وكومة من الأسطوانات. وذات يوم، جاءني صحيفيان لإجراء مقابلة معي. وفي الحقيقة كانا هما اللذين تكلموا أكثر مني. كانا شابين متحمسين، وكان لديهما ميل إلى أن يقاطع كل منها الآخر. وعندما رحلا حوالي الساعة الثانية صباحاً، كانت عينايتن ثقيلتين من التعب. وشعرت كما لو كنت قد أصبت بالصمم من جراء إطلاق مدافع. ولقد تبين لي فيما بعد أن هذه هي المسألة: عندما تصبح مثقلاً فإنك (تنطلق)؛ إنك تغوص في نوع من الخدر المعنوي وأنت تترك لضغطك الداخلي أن يتسرب كما لو كنت كرة منفوخة ثم انفجرت. وفي اليوم التالي رجع الصحيفيان لجلسة جديدة ومعها جهاز التسجيل. وعندما رحلا شعرت بعجز شديد عن عمل أي شيء؛ وبدلاً من هذا انتهزتها فرصة لأداء عدد من الأمور المنزلية الآلية.

في تلك الليلة، حوالي الرابعة صباحاً، استيقظت وأنا أشعر بعدم راحة، فاستلقيت هناك أفكر في كل تلك المواد التي كان لا يزال عليَّ أن أكتبها كما تفكرت في الكتب التي عليَّ أن أكتبها بدلاً منها. وبدأت هرمونات القلق تنساب في دمي، وتتسارع دقات قلبي. وفكرت بالفعل أن أتوجه إلى غرفة مكنتي وأشرع في مادة أخرى - وحينئذ تحققت من أنني إذا فعلت (ذلك) فإنني أترك للأشياء بالفعل أن تملكني. ولقد شعرت وأنا مستلق هناك، وليس لدي شيء آخر أفكر فيه، بطاقتي

وواضح أنها تهدد وجودك؛ ثم تكون في أعقابك، في الماضي، وتكون قد نجوت. أو تستيقظ من كابوس وتشعر براحة عندما تدرك أن العالم هو مكان وديع ثابت. إن الكون (بيدو) محيراً، غير أن هناك إنساناً ما في مكان ما يعرف جميع الإجابات... ولقد بدا لي أن الذين شبوا عن الطوق ليسوا بأفضل من الأطفال في هذا الصدد؛ إنهم محاطون بزعزعة الأمان وفقدانه؛ لكنهم يستمرون في العيش لأنّ هذا هو كل ما أمامهم لكي يفعلوه.

وبعد سنوات من تلك الليلة، حاصرني شعور ببعض الأخبار السيئة الأساسية المخيفة على نحو أعمق من أية مشكلة اجتماعية أو إنسانية. إنها قد تعود مع صدمة مفاجئة عندما تبدو الحياة آمنة ولطيفة - على سبيل المثال في أصيل صيف دافئ عندما رأيت نعجة تطعم حملانها وهي تبدو كلوحة للعناية الأمومية غير مدركة أنها وحملانها مصيرها الموقد.

والآن وقد ظلت في كرسي، وحاولت أن أكبت الرعب تبينت أنه من الأهمية (ألا) أبداً في استحلاب هذه الأساسيات - جهلنا المطبق والنقص لدينا لأبسط نامة من اليقين عمّن نحن ولماذا نحن هنا. ولقد أدركت - على هذا النحو - أن الأمر سيفضي إلى الجنون، إلى الوقوع في ثقب أسود عقلي.

واقترض أن ما بدا لي مفراطاً في السخرية هو شعوري الدائم بأنني أفهم علة المرض العقلي. ولقد مرّ عامان قبل أن أكتب مؤلفاً بعنوان (دروب جديدة في علم النفس) قلت فيه إن المرض العقلي إنما يتسبب أساساً من انهيار الإرادة. عندما تبذل مجهوداً فإن إرادتك تعيد شحن قواك الحيوية كعربة تعيد شحن بطاريتها عندما تشغلها. فإذا كفت عن الإرادة فإن البطارية تصبح هامة وتبدو الحياة عقيمة وعابثة. وحتى تخرج من هذه الحالة، فإن كل المطلوب هو التمسك (بأي) نوع من النشاط الغرضي - حتى بدون قناعة كبيرة - ثم تبدأ إعادة شحن البطارية من جديد. هذا هو ما سبق أن قلته، والآن وأنا أقاوم الرعب فإن كل يقين قد تبخر. وبدلاً من هذا وجدت نفسي أفكر في روايتي (الطفيليون العقليون) وفيها اقترحت وجود مخلوقات تعيش في أعماق عقولنا اللاشعورية وهي تستنزف حيويتنا كالنباتات الطفيلية. وكان هذا يبدو أقرب إلى ما كنت أشعر به.

وأخيراً، شعرت على نحو ما بالهدوء - والبرود - يكفي لأن أرجع إلى السرير. ولقد رقدت هناك وأنا أحرق في مربع النافذة الرمادي حتى أباعد بين عقلي والتحول إلى الداخل ليعكف على ذاته؛ ولقد استيقظ داخلي شيء ما من مقاومة آلية وشككت في أن ضوء النهار سوف يحيل الشيء برمته إلى شيء غير عادي باعتباره حلماً سيئاً. والحقيقة أي استيقظت شاعراً بالانحطاط والانهاك، وكان توقّع الأخبار السيئة يلح في مؤخرة عقلي عندما استيقظت. غير أن جهد كتابة مقال آخر جعلني

أشعر بتحسّن. وفي المساء شعرت بالاستنزاف وبدأ الخوف يعاودني وشككت في نفسي من أنني أريد أن أتجاهل شيئاً يخيف وأحسست بأنني أغرق في اليأس كما لو كنت أغرق في بركة. ولقد بذلت جهدي وازددت نشاطاً ذهنياً وفجأة شعرت بتحسّن. ثم إن شيئاً ما في التليفزيون أو فيما كنت أقرأه ذكرني بالخوف؛ كانت هناك رجفة باطنية أشبه بسيارة تنزلق ساعة تعشيقها وأرتدّ إلى الرعب.

كان لا يزال أمامي أن أكتب المقالات. وفي الحقيقة بعد أيام قليلة، كلمني المحرر المسئول في التليفون عمّا إذا كان في استطاعتي أن أنجز عشر مواد خلال الأسبوع التالي بدلاً من المواد السبع المعتادة. وكان هناك مساعد أمريكي يلوح لي بدفتر الشيكات ويطلبني بسرعة الإنجاز. ولما كنت قد قررت مقاومة الانسحاب من المشروع فإني أخذت في إنجاز مادة لمدة نصف نهار. وكنت أعامل نفسي أشبه برجل عضه ثعبان، فأرغم نفسي على أن أظل مستيقظاً. وتدرجياً بدأت أتعلم حيل هذه الحرب الغريبة ضد نفسي. كان الأمر أشبه بتوجيه طائرة ورقية. كان في استطاعة ومضة خوف أن تضيعني، وكان يمكن لمجهود ذهني أن ينتشلني من جديد، وأحياناً كان هذا يمكن أن يحدث عشرات المرات في الساعة الواحدة، إلى أن يكون هناك تيقظ مستمر يولد قوة باطنية، قد يكون بالأحرى نوعاً من الابتهاج، وكان الأمر يسوء عندما أدع نفسي ينتابها التعب. وبعد ثلاثة أشهر، وكنت في عربة نوم من لندن، استيقظت على صدمة، وكان الرعب شاملاً حتى أنني كنت خائفاً من أن أعاني من شلل خطير. وفجأة خطر لي أن أهبط من القطار في المحطة التالية وأسير على غير هدى دون أن أهتم بالاتجاه. وفي إحدى نوبات الرعب المتقطعة أرغمت نفسي على تكرار عملية تعلمتها في الهجمات السابقة: أن أصل إلى حدود معينة داخل نفسي لمحاولة فك العقد الذهنية. وبينما أنا أقوم بهذا، راعني أنني أستطيع أن أهدئ نفسي من الرعب إلى (المعتادية) ثم لم يكن هناك سبب بالتأكيد لماذا لا يجب أن أهدئ نفسي (وراء) هذه النقطة إلى حالة لا تزال أعمق من الهدوء. وبينما كنت أبذل جهداً للاسترخاء على نحو أكثر عمقاً، شعرت بالاضطراب الباطني ينقلب تدرجياً حتى توقفت التشنجات، ثم ضغطت وتنفست بعمق محدثاً المزيد من الاسترخاء. وفي الوقت ذاته قلت لنفسي إنني مريض لأنني تنمّرت من هذه الهجمات الغيبية، وعندما رجعت إلى المنزل في اليوم التالي كنت على وشك أن أقوم بالعمل اليومي العادي على نحو كامل. لقد أصبح تنفسي ضحلاً بل وكف لهاثي. وفجأة بدا الأمر كما لو كان قارب قد رُفِع من جنوحه على الشاطئ الرملي بسبب المدّ، وشعرت بنوع من الهزة الباطنية وطفوت في حالة من السكينة العميقة. وعندما تأملت في هذه المسألة فيما بعد راعني أنني حققت حالة تعدّد من الأهداف الرئيسية لليوجا: ما قاله ريلكه الشاعر الألماني عن «السكينة التي تشبه قلب وردة».

وببطء بدأت أفهم الآلية الأساسية لهذه النوبات. إنها تبدأ بتعب يتحول بسرعة إلى شعور عام (بعدم الثقة) في الحياة،

(*) الثعوب السود هي آحر صيحة في العلم الحديث حيث توجد مواد كئسه لدرجه أنها لا تسمح بانعكاس الضوء مما يجعلها تبدو كثعوب سود في الكون، وهنا يجري المؤلف تشبيهاً بحاله بالوقوع في الجنون (المترجم).

ننطوي على عشرات من (الأنوات)، وهدف هذه الطريقة هو جعل بعض هذه الأنوات تنصهر معاً مثل شظايا الزجاج المكسور عندما تتعرض لحرارة مكثفة. والوعي يمر من الأنا إلى الأنوات الأخرى مثل الكرة في لعبة «الرغي». وفي ظل هذه الظروف ليس ثمة استمرارية ممكنة، ونكون تحت رحمة كل انفعال سلمي. ولقد جعلني تأثير المدرسة أدرج حقيقة أخرى عن هذه (الأنوات) المتعددة وهي أنها تعيش في داخل لا في ساحة الرغي أو المستوى الأفقي فحسب بل أيضاً في (مستويات) مختلفة مثل السلم. إن كل أشكال النشاط الفرضي إنما تبعث (أنا) أرقى. ولقد أشار عالم النفس والفيلسوف الأمريكي وليم جيمس إلى أن الموسيقى قد يعزف على آتة ببراعة فنية معينة لعدة سنوات، ثم يدخل ذات يوم في روح الموسيقى حتى تصبح المسألة كما لو كانت الموسيقى تعزفه (هو)، إنه يصل إلى نوع من الكمال الذي يتم بلا جهد، وتكون هناك (أنا) أعلى وأكثر فاعلية. ويقوم (عمل) جوردييف على هذه المعرفة نفسها. إنه يجعل تلامذته يندفعون إلى ما وراء حدودهم العادية حتى تصبح لحظات (الكمال بدون جهد) شغلهم اليومي.

ويضرب ج.ج. بنيت مثلاً رائعاً في سيرته الذاتية (شاهد). لقد كان جالساً في «معهد جوردييف بفوتسبلو للتطور المتناغم للإنسان»، وكان جوردييف نفسه يقوم (بتدريباته) القائمة على رقصات الدراويش. وهدف هذه التدريبات هو إثارة الإنسان إلى درجة أعلى من التيقظ وتمكينه من الحصول على سيطرة شاملة على (مركزه المتحرك)، وهي تتضمن سلسلة معقدة من الحركات. أحياناً يتم أداء أشياء مختلفة بالقدم واليدين والرأس. (حتى يمكن أن تحصل على فكرة المشكلة الواردة حاول اللعبة القديمة بحك معدتك بحركة دائرية بيد وتربيت رأسك باليد الأخرى) ولقد كان بنيت يعاني من الإسهال ويشعر بإنهك جسماني. وذات يوم وجد نفسه يرتعش من الحمى. «تماماً كما كنت أقول لنفسي: (سوف أمكث في السرير اليوم) شعرت بجسمي ينهضي. لقد ارتدبت ثيابي وتوجهت إلى العمل كالمعتاد ولكن كان لدي هذه المرة شعور غريب كما لو كانت تملكني إرادة عليا ليست إرادتي». وبرغم الانهك الشديد أرغم نفسه على المشاركة في سلسلة من التمارين الجديدة الشاقة. ولقد كانت التمارين معقدة إلى حد أن التلاميذ الآخرين كانوا يتساقطون الواحد بعد الآخر. ولقد شعر بنيت بأن جوردييف يريد أن يستمر حتى لو قُتل. وحينئذ: «فجأة امتلأت بتدفق قوة هائلة. وبدأ جسمي كما لو كان قد تحول إلى نور. ولم أستطع أن أشعر بحضوره بالطرق المعتادة. لم يكن هناك جهد ولا ألم ولا قلق ولا حتى شعور بالثقل».

وقد انتهت التجارب والتمارين وانطلق الآخرون ليشربوا الشاي وتوجه بنيت إلى الحديقة وبدأ يحفر: «شعرت بالحاجة لاختبار القوة التي نفذت في، وبدأت الحفر في حرارة الأصيل القاسية لأكثر من ساعة بمعدل لا أطيعه في الأحوال العادية أكثر من دقيقتين. لم أشعر بالتعب ولا بأي شعور بالجهد. وأصبح جسمي الضعيف الذي يعاني الإنهك قوياً

فقدان شعورنا المعتاد بأن كل شيء على ما يرام (على نحو أو آخر). ثم إن المسألة كلها متعلقة بالمشكلة القديمة عن الوعي الذاتي. إنك إذا تفكرت في الحك فإنك تبدأ في الحك. وإذا تأملت في الشعور بالمرض فإنك تشعر بالمرض. إن الوعي المرتد إلى نفسه ينتج (التأثير الفضاوض) الذي هو أساس كل عصاب (أي كلما حاول الذي يتهته في الكلام أن يبذل جهداً لكي لا يتهته ازداد تتهته) فإذا اشتغلت في منتصف الليل وحاولت (ألا) أشعر بالتوتر فإن ضربات قلبي تتسارع ويبدأ الرعب. وكان عليّ أن أغمي حيلة تحويل انتباهي إلى بعض المشكلات اليومية كما لو كنت أقول لنفسي «آه، نعم، كم هو مهم». وبمجرد أن عرفت هذا بدأت النوبات تخف. ولقد كان عزاء لي عندما أخبرني صديق تتنابه هذه النوبات أن الحالة تداوي نفسها بعد ثمانية عشر شهراً حتى بدون علاج.

وعندما حاولت أن أفكر في الأسباب الأساسية للرعب كان عليّ أن أعرف أن اضطرابي هو (طفولية). فعندما يتم دفع طفل إلى ما وراء حد معين من التعب أو التوتر فإن إرادته تتهار. فهناك شعور غريزي باللعب ينتهك وهو يميل إلى عدم بذل المزيد من الجهد. واليافع قد يشعر شعوراً مماثلاً بالاستسلام للمشكلة، غير أن الحس العام المشترك والعناد يرغمان الإرادة على بذل المزيد من الجهد. ولما كنت دودة عمل، فقد اعتدت أن أقود نفسي مجدية. لقد علمتني التجربة أنني عندما أفرط في التعب فإن أسرع طريقة للشفاء هي في الغالب أن أقود نفسي للحصول على (تنفس ثان). ولكن حتى تفعل هذا بفاعلية فإنك تحتاج إلى تأييد كامل من عقلك اللاواعي وشعورك العميق بالهدف والمعنى الباطنيين. وفي هذه الحالة كنت أحاول أن أدفع نفسي إلى ما وراء حدودي الطبيعية - بكتابة ما يعادل كتاباً طويلاً كل ثلاثة أشهر - وهناك عنصر طفولي في لا شعوري انطلق في حالة إضراب. ومن هنا كان الجلوس، والذراعان مطبقتان في تعبير جامد، مع رفض إعادة شحن بطارياتي الحيوية. وهكذا عندما تجاوزت نقطة معينة من التعب اكتشفت أنه ليس هناك المزيد من الطاقة. وكان الأمر أشبه بهبوط سلم واكتشاف أن الدرجات الأخيرة مفقودة. ومن هنا أرغم وعيبي على التدخل، وهو أمر شاق نظراً لأن ما تحت الشعور عادة ما يُعرف على نحو أفضل. وكان عليّ أن أقول لنفسي إنني غيبي تماماً، وأنتي في أيام شبابي كنت أعمل على نحو أسرع كآلة أكثر مني ككاتب أو أن الكتابة من أجل لقمة العيش قد جعلتني كسولاً فاسداً.

إذن كان الرعب يسببه مستوى أدنى من وجودي، كانت هناك «أناي» الطفلية المشاكسة. وما دمت متوحداً مع هذه الأنا، فأنا في خطر. غير أن التوتر الناشئ يمكن دائماً مواجهته (بإيقاظ نفسي إيقاظاً كاملاً) واستدعاء (أنا) أكثر غرضية. والأمر أشبه بمدرسة تدخل غرفة مليئة بأطفال يتشاجرون فتصفق بيديها فتتوقف الفوضى فجأة ويتبعها صمت جبان، وقد أطلقت على هذا (تأثير المدرسة).

لقد عرفت دائماً أن جوردييف كان على حق عندما قال إننا

الرب لا تسمى. فكرت في (الفرح) وشعرت بأن قلبي سينفجر من فرط السرور. وخطرت لي كلمة (الحب) وأحاطت بي ظلال جميلة من الرقة والحبور حتى أنني رأيت أعماق الحب وكان الحب في كل مكان وفي كل شيء. لقد كان هناك تكيف لانهائي مع كل احتياج. وبعد فترة أثقل الأمر علي؛ وبدأ لي أي إذا غصت أعمق في سر الحب فإنني سأكف عن الوجود. لقد أردت أن أكون حراً من هذه القوة لكي أشعر بما أختار، ومن التوفيق هذه القوة.»

تعد تجربة بنيت أنموذجاً فريداً لما أسميته في كتابي (الخوارق): «الملكة المجهولة». عندما نقول إننا (نعرف) شيئاً على أنه حقيقي فإننا نكذب. (لقد مات عشرة أشخاص في الليلة الماضية في اصطدام في الجو). (نعم، إنني أعرف). إننا (لا) نعرف. إن عمال الانقاذ الذين يحاولون انتشال الجثث من اللهب هم الذين يعرفون. أما بالنسبة للآخرين فإن هذه المعرفة هي نسخة باهتة بالكربون. وكيف أستطيع أن أزعج أنني (أعرف) أن موزار قد كتب سمفونية جوبيتر؟ إنني لا أستطيع حتى أن أدرك أن موزار قد وجد حقاً وإذا مشيت في غرفة في سالزبورج حيث عزف موزار بالفعل فإنني أقرب قليلاً - إذا كنت في حالة طيبة - من إدراك أن موزار كان حياً بالفعل. غير أنني لا أزال بعيداً جداً من (معرفة) هذا.

هناك طريقتان بها أستطيع أن (أعرف) أن موزار كان موجوداً. يمكنني أن أجلس في غرفة عزف فيها وأدخل في حالة متمعدة من السكينة العميقة ربما عن طريق شكل من أشكال (التأمل المفاوق). و (جينتد) أستطيع أن ألتقط الأمر، لأنني أكون قد أبطأت إحساساتي، وأحكمت قبضتي على اندفاعها الأهوج المعتاد. أو قد ألتقط الأمر في لحظة الحدس المفاجئة وأنا أمر بأصابعي على لوحة مفاتيح البيانو التي لمسها بالفعل. وهذا يقتضي تركيزاً شديداً؛ إن هذا هو المقابل الذهني للقفز على سور ارتفاعه ستة أقدام. وهناك طريقة ثالثة أقل اقناعاً من الطريقتين السابقتين ومع هذا أقل صعوبة. أستطيع أن أنغمر في موسيقى موزار وأقرأ كتباً عن حياته وأدرس رسائله. أن للفن قوة ادراج درجة من الملكة المجهولة. وهذا هو السبب الذي دفع الناس إلى اختراع الفن. وعندما نغمر أنفسنا في العالم الخلاق للمؤلف الموسيقي فإن (الانسرابات) الباطنية التي تُسرب الكثير من طاقاتنا تتعلق تدريجياً ويرتفع ضغطنا الداخلي. ونحن نعيش تجربة تأثير (البساط السحري) فنطفو فوق حياتنا ونرى الوجود الإنساني كبانوراما تمتد تحتنا، والمشكلة الرئيسية بالنسبة لهذا النوع من الوعي هي أنه يُصعب من العودة إلى الأرض، ونحن نجد الواقع اليومي عقيماً ومثيراً للاشمئزاز، والملكة المجهولة المكشوفة لها تأثير عكسي؛ إنها تقوي طاقتنا على التمشي مع الواقع اليومي برفع ضغطنا الباطني.

وواضح أن جورديف يمتلك مقدرة غريبة لبعث القوى الخفية في الآخرين. ولقد أوردت في موضع آخر الحكاية التي يصف فيها أوسبنسكي كيف بدأ جورديف يجري التخاطر معه

ومطيعاً. وانقطع الأسهال ولم أعد أشعر بالآلام المعدة التي لازمتني عدة أيام. زيادة على ذلك تولتني نورانية فكر لم أكن أعرفها إلا بغير إرادة وفي لحظات نادرة، ولكنها الآن أصبحت طوع يدي. ورجعت بفكري إلى شارع «جراند دي بير» فكتشفت أنني أستطيع أن أعني البعد الخامس. وعبارة (في عين عقلي) أصبح لها معنى جديد، حيث أنني (رأيت) الانموذج الخالد لكل شيء أتطلع إليه؛ الأشجار، النباتات، المياه المتدفقة في القناة بل وحتى شدة قوتي وأخيراً جسمي. لقد تبيّنت العلاقة المتغيرة بين (نفسي) و (أنموذجي). ولما كانت حالة وعيي قد تغيرت فإن (أنائي) و (أنموذجي) ينموان معاً أو ينفصلان معاً ويفقدان اتصالهما معاً. إن الزمن والخلود هما شرطا تجربتنا والتطور المتناغم للإنسان الذي كان يقودنا نحو جورديف هو سر الحرية الحقيقية. وإنني لأتذكر قولتي بصوت عال: (الآن أدرك لماذا يخفي الله نفسه عنا) ولكن حتى الآن لا أستطيع أن أتذكر الحدس الكامن وراء هذه الصيحة.»

إن رؤيه (الأنموذج الخالد) وراء الأشجار والنباتات تذكر بتجربة «بوهمة» الصوفية عندما سار في الحقل ورأى (إشارة الأشياء كلها) كما لو كان قد استطاع أن يرى النسج أو السائل الذي يجري في عروق الأشجار والنباتات. غير أن بنيت ذهب خطوة أبعد. لقد أنطلق في نزهة في الغابة وقابل جورديف؛ وأخبره جورديف:

«إن تناسخ الوجود الكامل الحقيقي الضروري للإنسان الذي يريد أن يحقق غرض وجوده يقتضي تركيزاً أكبر من الطاقة الانفعالية العليا، أكبر مما ينتابه بالطبيعة. هناك بعض الناس في العالم - وإن كانوا نادرين - مرتبطون بخزان كبير أو مجمع لهذه الطاقة. وهذا الخزان ليست له حدود. ومن يستطيع أن يعب من معينه يمكن أن يكون عوناً للآخرين. فلنفرض أن إنساناً يحتاج إلى مئة وحدة من هذه الطاقة لكي يتبدل ويتناسخ، لكن ليس لديه سوى عشر وحدات ولا يستطيع أن يفعل المزيد لنفسه. إنه يأس. ولكن بمساعدة إنسان قادر على أن يعب من الخزان الكبير، فإنه يستطيع أن يقترض تسعين وحدة أكثر. ومن ثم يكون عمله فعالاً ذا تأثير»

وعندما توغل بنيت في الغابة، تذكر محاضرة ألقاها أوسبنسكي أكبر تلاميذ جورديف:

«لقد تحدثت عن الحدود الضيقة جداً التي نستطيع أن نسيطر فيها على وظائفنا، وأضاف: (من السهل التحقق من أنه لا سيطرة لنا على انفعالاتنا. وبعض الناس يتصورون أنهم يستطيعون أن يكونوا غاضبين أو مبتهجين كما يشاؤون، ولكن يستطيع أي إنسان أن يتحقق أنه لا يستطيع أن يصاب بالدهشة حسب الإرادة). وبينما كنت أتذكر هذه الكلمات قلت لنفسي: (سوف أندش بإرادتي) وفي التوتولتي الدهشة لا إزاء حالي فحسب؛ بل إزاء كل شيء أتطلع إليه أو أفكر فيه. كانت كل شجرة فريدة، حتى أنني شعرت أنني أستطيع أن أمشي في الغابة إلى الأبد ولا أكف عن التعجب، ثم خطرت لي فكرة (الخوف) وفي التواهتزت رعباً. وأحاطتني من كل جانب أشكال من

في فنلندا^(١). وليس هناك شك من أن جورديف قد حقق درجة من التحكم من ملكته المجهولة. ومع هذا، فيبدو أن هذه السيطرة سيطرة جزئية فقط. يتضح هذا من رواية أوردها كتاب (جورديف يتذكر) لفريتز بيترز الذي كان يعرف جورديف منذ الصغر. لقد كان بيترز عريفاً أمريكياً وفي عام ١٩٤٥ كان يعاني من اكتئاب وتوتر شديد. وفي باريس زار جورديف وهو في حالة انهيار أعصاب تام. أغراه جورديف أن يستلقي، ولكن بعد دقائق قليلة انطلق بيترز ليبحث عن جورديف في المطبخ. ورفض جورديف أن يعطيه اسبرين ولكن بدأ يعد قهوة:

«وحينئذ سار عبر الغرفة الصغيرة ليقف أمام الثلجة وراقبني. ولم أستطيع أن أرفع عيني عنه وتيقنت أنه يبدو مضطرباً للغاية - ولم يسبق لي أن رأيت إنساناً متعباً على هذا النحو. وأذكر أنني كنت أستند إلى المنضدة تعباً أرشف قهوتي عندما بدأت أشعر بارتفاع غريب في الطاقة داخلي - فحدقت فيه وانتصبت على نحو آلي، وبدا الأمر كما لو كان هناك نور أزرق كهربائي شديد ينبثق منه ويدخل في. وعندما حدث هذا أستطعت أن أشعر بالتعب يخرج مني، ولكن في هذه اللحظة انتفض جسمه وبدا وجهه رمادياً كما لو كانت الحياة قد استلّت منه. تطلعت إليه محذقاً، وعندما شاهدني جالساً منتبهاً ومبتسماً ومليئاً بالطاقة قال بسرعة (إنك على ما يرام الآن - ارقب الطعام على الموقد - يجب عليّ أن أذهب...)

«لقد مضى ربما لمدة خمس عشرة دقيقة بينما كنت أرقب الطعام وأنا أشعر بالاستياء والاندهاش لأنني لم أشعر إطلاقاً بأيّ تحسن في حياتي. لقد كنت مقتنعاً حينذاك - وكذلك الآن - أنه عرف كيف يحول الطاقة من نفسه للآخرين؛ وكنت مقتنعاً أيضاً بأن هذا يمكن أن يحدث ولكن بشمن باهظ على حساب نفسه.

«ولقد أصبح واضحاً أيضاً خلال الدقائق القليلة التالية أنه عرف كيف يجد طاقته بسرعة، فقد كنت مندهشاً بالمثل عندما عاد إلى المطبخ ليرى التغيير فيه؛ ولقد بدا من جديد أشبه بشاب وهو يتسم ومعنوياته مرتفعة وقال إن هذا اللقاء لقاء رائع للغاية، وأنه بينما كنت أرغمه على بذل مجهود مستحيل فإن هذا - كما رأى شيء طيب لكلينا».

تعتمد طريقة جورديف كلها على ارغام الناس على القيام بمجهود غير عادية لإطلاق (احتياطياتهم الحيوية) وجهد مساعدة بيترز واضح أنه (ذكر) جورديف بشيء قد نسيه جزئياً - كيف يستدعي احتياطياته الحيوية. وبعد جهوده لمساعدة بيترز بدأ مستنفداً منهوكاً: «لم أر مخلوقاً منهوكاً على هذا النحو» وإن اضطارره لمساعدة بيترز قد أيقظ طاقاته الحيوية. وهكذا بدا أن جورديف، بالرغم من الحيوية الهائلة التي تؤثر في كل إنسان يقابله، لم يكن يسيطر على نحو تام ومعتاد على (قواه الغربية). ويبدو من الواضح أن جورديف - كما يعتقد بيترز - عرف

(١) أنظر: الخوارق، الجزء الثاني، المصل الثامن.

سر تحويل الطاقة على نحو مباشر للآخرين. وهناك العديد من (المطبّين) يبدو أنهم يمتلكون هذه المقدرة. وهناك قصة صادقة تتعلق (بالراهب) راسبوتين وصديقة القيصرة أنا فيروبوفا. ففي يناير ١٩١٥ كانت أنا فيروبوفا من ضمن المصابين في حادث قطار، كان رأسها قد انحسر في عارضة حديدية وانسحقت ساقاها؛ وفي المستشفى أعلن الطبيب أنه لا أمل في نجاتها. وقد سمع راسبوتين عن الحادثة بعد وقوعها بأربع وعشرين ساعة فاندفع إلى المستشفى. وقد تجاهل والقصر القيصرة اللذين كانا بجانب السرير واتجه إلى المرأة الفاقدة الوعي وتناول يديها (أناشكا، أنظري إلي) انفتحت عيناها وقالت: (جرمجوري، شكراً لله). أمسك راسبوتين بيديها وهدق عمداً في عينيها، وركز بشدة. وعندما استدار للقيصر والقيصرة بدا وجهه منهكاً ومجهداً (سوف تعيش ولكنها ستكون دائماً مقعدة) وبينما كان يغادر الغرفة انهار مغشياً عليه. غير أن شفاء أنا فيروبوفا بدأ من هذه اللحظة.

إن المسألة التي طرحناها هنا ذات أهمية قصوى في حياة كل إنسان: إن المسألة خاصة ب كيف يمكن إحراز تضعيف (لاحتياطياتنا الحيوية). إن توترات الحياة الحديثة تعني أن معظمنا يعاني من تقلص في المجرى الذي يحمل امدادنا من الطاقة الحيوية. ولقد جعلتني تجاربي الخاصة بنوبة الرعب على وعي بأن هذه المسألة مسألة حياة أو موت. إن الرعب يميل إلى أن يتغذى من نفسه. وكنت أشبه بسائق عربة أندفع المرعج فيها بسرعة متناهية. وفي هذه الحالة كنت على وعي بالامكانية المرعبة للتوتر الشديد المفضي إلى (حالة انهك) وشلل تام. وبينما كنت أتعلم الحيل الأساسية للسيطرة على النوبات حصلت أيضاً على استبصار بمشكلة الاحتياطيات الحيوية.

من أعلى الصفات الإنسانية قوتنا وقدرتنا على التركيز. لكن هذه القوة تتضمن ضعفاً شديداً، فعندما أركز على شيء (أتجاهل) كل شيء آخر في الكون. إنني أغلق على نفسي في سجن. فإذا مكثت في هذا السجن طويلاً فإنني أبدأ في الاختناق. وهذا هو ما يحدث عندما نفرط في العمل أو عندما نحاصر بقلق تام. إننا ننسى الكون الذي يوجد خارجنا إلى أن يصبح مجرد ذكرى بعيدة. وحتى عندما ينتهي العمل، غالباً ما ننسى أن نعيد الاتصال ونفتح النوافذ ومن ثم نصاب بالعمى والصرع.

وهذا يعد من أسوأ العادات التي نعيشها خلال تطورنا. وهناك قصة عن راهبين متصوفين يؤمنان بعبادة «الزن» الصوفية البوذية واجها فتاة تنتظر عند محاضرة النهر تريد أن تعبره؛ فحملها أحدها وعبر بها النهر ثم وضعها على الضفة الأخرى. وبعد عشرة أميال انفجر الراهب الآخر قائلاً: «كيف يمكنك أن تفعل ذلك؟ أنت تعرف أننا ممنوعون من ملامسة النساء.. فقال رفيقه: «أنزلها، فأنت لا تزال تحملها». ومعظم الناس يحملون عشرات من الأثقال الخفية.

إن الزرع خطر، لأن صحتنا العقلية تتوقف على (المعنى)

الذي يأتي من العالم حولنا. المعنى هو شيء يسير من خلال الإحساسات في صباح ربيعي أو عندما تصل إلى شاطئ البحر وتسمع صيحة طيور النورس. إن كل حَصْرٍ إنما يجنبنا عن المعنى. لقد بدأت نوبات رعيي عندما أغلقت باب المعنى. وكنت أشبه برجل يعاني ببطء من الاختناق موتاً لأنني كنت أقبض على قصبتي الهوائية.

ومن المهم أن ندرك أن هذا التأثير الخائق آليّ تماماً. إنه نتيجة جانب للعقل أسميه (الإنسان الآلي)، ذلك الخادم اللاشعوري الذي يؤدي كل المهام الآلية اليومية في الحياة. (الإنسان الآلي) هو الذي يكتب الآن هذه الصفحة على الآلة الكاتبة لي بينما (أناي الحقيقي) يقوم بالتفكير. وعندما أشعر بأنني مليء بالطاقة والحيوية يقبع الإنسان الآلي في الخلفية وأتحوّل وحواسي مستيقظة بشكل متسع. وعندما أتعب يقوم الإنسان الآلي بالمزيد من وظائفه وتصيح الحقيقة من حولي أقل واقعية وحقيقية. وإذا أهدمت عصبياً فإن الإنسان الآلي يهيمن تماماً وتصبح الحياة لا حقيقة دائمة. وفي هذه الحالة إذا تعرضت لمزيد من الضغوط بدلاً من الترويح والتخفيف يتحول القلق إلى رعب. إن الإنسان الآلي في داخل الإنسان يصبح هو المرع الذي يضاعف السرعة فجأة.

ولقد سحرتني دائماً الطريقة التي تصدم أو الأزمة التي تستطيع أن تطلق سراحنا من (الاختناق)، فتح النوافذ المغلقة بل وغالباً إحداث رؤية صوفية للمعنى؛ وكان أول كتاب لي هو كتاب (الخوارج)^(١) وهو يدرس العديد من هذه الحالات. كانت هناك - مثلاً - تجربة نيتشه على جبل يسمى ليوتش؛ وهو يصف التجربة في خطاب بعث به إلى صديقه فون جرسدورف:

«بالأس هبت عاصفة حصار وكانت تحيم فوق السماء فهرعت إلى قمة جبل قريب... وعلى القمة وجدت كوخاً، وكان هناك رجل ينحر جدياً بينما كان ابنه يرقبه. وهبت العاصفة بقوة هائلة مدوية مطرة برداً فتولاني شعور لا يوصف بالفتنة والسحر، وأيقنت أننا لا نفهم الطبيعة حقاً إلا عندما نظير إليها لنهرب من اهتمامتنا وشواغلنا... البرق والعواصف عوالم مختلفة، قوى حرة بلا أخلاق. إرادة حرة بدون تشوشات العقل - كم كنت سعيداً، كم كنت حراً!»

وما هو أكثر دلالة كان تجربة القديس الهندي الحديث، راماكريشنا وهو يصف أول وجد صوفي تعرّض له:

«كنت أعاني من ألم مُعذّب لأنني لم أحظ ببركة رؤية الأم الإلهية... لم تبد الحياة جديدة بأن تعاش. ثم وقعت عينا على السيف الذي حُفظ في معبد الأم. لقد قررت أن أنهي حياتي، فقفزت وأمسكت به، وفجأة تجلت الأم لي وكشفت عن نفسها... لقد اختفت المباني... المعبد وكل شيء ولم تترك أثراً؛ وبدلاً منها كان هناك محيط متألق لامتناه ولا محدود للوعي أو الروح. وعلى مدى امتداد العين وقدرتها على الرؤية فإن أمواجه كانت

تندفع نحوني من كل جانب... كنت ألثت كي أنتفس. لقد انغمرت في الأمواج وسقطت فاقداً الشعور». ومنذ هذه اللحظة كان مجرد اسم الأم المقدس كافياً لإرسال راماكريشنا إلى محيط الوجد الإلهي.

في هاتين الحالتين كان يسبق لحظة التحرر شعور بالحصار والضيق، تأثير الاختناق. لقد كانت حواسها تنفلق حتى أنها كانا يعانيان من (مسبغة المعنى). إن الناس يتقبلون نقص المعنى بتسليم قدرتي أعمى كما يتقبل الحيوان المرض والألم. ومن ثم يأتي التحرر أشبه بالعاصفة الرعدية، كما لو كان وقف تنفيذ فجائياً للموت، حاملاً شعوراً بالفرح والعرفان الغامرين وإدراك أن المعنى موجود دائماً. إننا نحن الذين نغلق أعيننا عنه.

وعندما كانت طاقاتي تزداد اختناقاً من نوبات الرعب، كان عليّ أن أتعلم كيف أصبح واعياً بهذه الآليات. وكان يذهلني (تأثير المدرّسة) فهذا التأثير الذي يبدو أنه مستوى أعلى من وجودي أصبح عاملاً عندما نفصت عني الرعب وأرغمت نفسي على حالة من التنبّه واليقظة. ولقد ذكرني بتجربة صديق أكاديمي تعرض لحالات من اليأس والشك، وفي إحدى الاجازات الصيفية جاء ليزورنا وقد بدا متغيراً تماماً؛ لقد فقد وزنه وكان يشع بالحويمة. فسألته ماذا حدث فشرح لي أن طبيبه أمره أن يخفف وزنه، وملاّته هذه الفكرة بشعور بالهزيمة. وعلى أية حال حاول أن يقلل من أكله وأن يسير إلى الجامعة، ولدهشته وجد أن المسألة أسهل مما كان يتوقع. ولما خف وزنه زاد تفاؤله؛ وبدأ يشعر بأن المشكلات (كلها) يمكن حلها بإحساس عام بسيط وبفرح وتصميم. ولقد استرجع نفسه الماضية وتأمل فيها بنوع من الرثاء. لقد سيطر عليه (مستوى أرقى) وشعر بأنها أكثر حقيقية وصدقاً من نفسه القديمة.

وواضح أن محاولة، راماكريشنا للانتحار قد أوجدت رؤية أكثر قوة (بتأثير المدرّسة) ورفعته إلى مستوى أرقى. ومن جهة أخرى فإن الهم وفقدان الهدف يميلان إلى إيجاد تأثير معاكس: الاستسلام للقناعة بالضعف وعدم الجدارة العام. (كما يعرف كل علماء علم الاجتماع، فإن هذه الحالة تولد الجريمة) وإذا نحن عدنا إلى صورة السلسلة الشاملة (للفنوس) المرتبة أشبه بالدرج، فيمكننا أن نقول إن الوعي يستطيع أن يتحرك أعلى أو أسفل السلم وهو يتطابق مع (النفوس) المختلفة.

ولكن عندما تأملت في هذه الصورة راعني أن السلم شاذ في مسألة واحدة: إنه على شكل مثلث حتى أن الدرجات الأعلى أقصر من الدرجات الأدنى. وعندما أصدع السلم أستشعر حالة التركيز والسيطرة. وعندما أهبط - عبر اليأس أو التعب - يصبح وجوداً منحللاً أشبه بسحابة وأبدأ في الشعور بأنني تحت رحمة العالم المحيط بي. وفي هذه الحالة يبدو واضحاً (أنني) ضعيف وأنا في وعاجز عن القيام بأي شيء مهم.

والسؤال المهم بطبيعة الحال هو.. ماذا يكمن عند قمة السلم؟ هل ستكون هناك (أنا) قصوى؟ الصوفي قد يقول: الله. ولقد تحدث الفيلسوف الألماني المعاصر ادوموند هوسرل عن (الأنا

(١) نرجم إلى العربية خطأ باسم «اللامسي» وهو معنى لم تكن عند كولون ولس (الترجم).

الكلية الصورية) أي الوجود الذي يعلو على كل وعي ويجد الفلسفة بأنها محاولة لكشف النقاب عن أسرار الأنا الكلية الصورية. ويوافق جورديف على هذا فيما عدا أنه يشك في قيمة الفلسفة. وهو يصر على أن الطريقة الوحيدة لاستكشاف السلم هي ارتقاؤه.

وعندما قررت أن أتابع كتاب (الحوارق) قررت أن أقصره على مسألة النجاة بعد الموت. غير أن هذه الاستبصارات أوجدت تعقيدات جديدة في الشروع. فلنبداً: ما هو بالضبط ذلك الذي يموت؟ من الناحية البيولوجية إنني أشبه بمدينة أكثر مني بفردي. إنني ممتلىء ببيكتريا تسمى جراثيم الطاقة وهي منفصلة عن (أناي) ومع هذا فهي جوهرية بالنسبة لبقائي الحيوي. وبطبيعة الحال فإن جسمي مكون من ملايين الخلايا، وكلها تموت وتتجدد كل ثماني سنوات حتى أنه لا تبقى الآن ذرة واحدة من الشخص الذي كنته منذ ثماني سنوات. وعندما يُعدم شخص فإن كل خلية من جسمه تستمر في الحياة كما لو لم يكن قد حدث شيء - وهذا هو السبب الذي يجعل الشعر والأظافر تستمر في النمو. إذن ما الذي يموت بالضبط والجلاد يجزُّ عنقه؟ لا شك أنه مبدأ أعلى للتنظيم، نفس أعلى أو أكثر من (النفوس العليا). غير أن النفوس العليا لا تموت إذا وقع الإنسان في اليأس والكآبة واندفع إلى الجريمة، فهي تبقى في طور السبات أو الكمون. هل هناك أي سبب للاعتقاد بأنها تموت مع موت الجسم؟

هذه النظرة يبدو أنها تلقي ضوءاً جديداً على كل أنواع الأسئلة المرتبطة بالحوارق أو علم نفس الأعماق. فمثلاً، منذ كتبت كتاب (الحوارق) أصبحت مفتوناً بموضوع الغوص في الأعماق وخاصة عندما اكتشفت أنني أستطيع أن أستخدم عصا الغوص وأنها تفضي إلى ردود أفعال قوية حول الأحجار المشيدة القديمة. غير أنني رأيت غواصي أعماق يعلقون «بندولهم» فوق خريطة ومجددون بالضبط مواقع المجاري المائية الخفية. إنهم يستطيعون حتى أن يسألوا البندول أسئلة - (متى أقيمت هذه الدائرة الحجرية) - ويحصلوا على إجابات محكمة. لقد عرف القدماء هذه التأثيرات وافترضوا أن الأجوبة تلقي بها الأرواح. وبدا لي أن الأكثر منطقية هو افتراض أن نفساً علوية من (النفوس العليا) هي التي تسارع بتقديم المعلومات وتستطيع أن تنقلها من خلال البندول أو العصا ذات الألف ورقة.

ثم هناك السر الغريب (للشخصية المتعددة). لقد كتبت في كتاب (الحوارق) بإيجاز عن قضية الأمير مورتون عن (الأنسة بيشامب) التي كانت (تستحوذ عليها) شخصية مختلفة تماماً اسمها سالي. وفي عام ١٩٧٣ اشتغلت في سلسلة من البرامج التلفزيونية للإذاعة البريطانية عن (الحوارق) وأتيحت لي الفرصة لدراسة الحالة بعناية أكبر، وأفضى بي هذا إلى إعادة بحث الظاهرة برمتها عن الشخصية المتعددة. وشخصية (سيل) التي درستها الدكتورة فلورا شريير تعرض ما لا يقل عن ست عشرة شخصية مختلفة. ووجهة نظر الطب العقلي هي أن الشخصية تمرق من جراء صدمة فتحفظ كل شظية - مثل المرأة المكسورة - بنوع

من الذاتية. ووجدتني أتعجب ما إذا كان هذا يمتثل أن ينطبق علينا جميعاً - وهو أن نفوسنا اليومية هي مجرد شظية من شخصية قصوى نسمى جميعاً شوقاً إليها. وكتب الأستاذ إيان ستيفنس أحد علماء علم نفس الأعماق بجامعة فرجينيا عن حالة تجسيد بها حوادث غريبة. فالطفل الهندي «جاسبر لال جات» البالغ من العمر ثلاث سنوات ونصفاً مات من السل لكنه ظل حياً بعد الوفاة بضع ساعات بشخصية جديدة. وقد قدم (الغريب) نفسه على أنه رجل من قرية أخرى مات بعد أن تناول حلوى مسمومة، ومعرفة الدقيقة التفصيلية بحياة الرجل أفتعت والديه - وأفتعت ستيفنس فيما بعد - أن يقول الحقيقة. والصفة الغريبة للغاية في القضية هي أن الرجل قد مات في الوقت الذي مات فيه الطفل (موته الغيبوي) مما يوحي بالتناسخ التام للشخصية من جسم لآخر^(٢).

ولقد راعيتي التائلات بين حالات الشخصية المتعددة وأولئك المنخرطين في نشاط الأرواح الشريرة. وهناك سلسلة برامج تليفزيونية أخرى تناولت حالات الأرواح الشريرة الأصلية. لقد لعبت الروح الشريرة بالمعدات الالكترونية في مكتب محام، واستحالت الروح الشريرة إلى كاتبة شابة اسمها (آغارتي شابرل) مع هذا فإن آغارتي كانت جاهلة تماماً بأنها سبب المشاكل. والأمر هكذا في عدد كبير من حالات الأرواح الشريرة (الأستاذ هانز بندار الذي بحث حالة الروح الشريرة روزنهايم يؤكد أهمية تسلسلها برقة في الأطفال الذين يجهلون سبب الاضطرابات وذلك لتجنب ترويعهم) وسالي التي هي الأنا الأخرى للأنسة بوشامب كانت مؤذية وتنطلق في إلقاء النكات، ومن السهل أن تتصور سالي غير متجسدة وتتصرف بالضبط مثل الروح الشريرة روزنهايم.

ولقد رُوِّعت عندما قالت لي مقدمة البرنامج «آن أوان» أنها عاشت فترة كانت فيها تستطيع أن تتنبأ بالمستقبل. فقبل حفل موسيقى كان سيعزف فيه عازف فيولونسيل شهير انتابها شعور بأنه سيقطع وتره، وسألت منظم الحفلة ماذا يفعلون إذا حدث هذا؛ فاستبعد هذا لأنه غير محتمل. غير أن الوتر انقطع قبل نهاية الحفلة بثاني دقائق (ولما عرف عازف الفيولونسيل بنبوءتها استنتج أنها تسببت في جعل النبوءة تتحقق ورفض الحديث معها) وفي لقاء في ميدان السباق مع زوجها وليف من الأصدقاء عرفت فجأة معرفة يقينية أي جواد هو الذي سيكسب السباق التالي. واندفع الجميع للرهان على الجواد الذي فاز. غير أن زوجها لم يسمع اسم الجواد جيداً وراهن على الجواد الخطأ. واستنتجت أن مثل هذه القوى لا يمكن استغلالها لتحقيق ربح ذاتي. ويثير هذا الرأي عدد من المكشوف عنهم الحجاب من أصحاب الحوارق الذين ماتوا فقراء.

ولقد وجدت نفسي أبحث عن سبب يربط قوى التنبؤ بنظرتي في (سلم النفوس). ولقد أخبرني غواصو الأعماق أن البندول يستطيع أن يجيب عن أسئلة المستقبل، فوجدت دليلاً مقنعاً على صحة هذا؛ غير أن غواصي الأعماق يعتمدون على

(٢) أنظر: «عشرون حالة موحية من التفتض» ٣٣ وما بعدها.

عصا الفوص أو البندول لأعلى رؤية صوفية. ثم حدث أن قرأت كتاب آلان فوغان (نماذج التنبؤ) ووجدت المثال الذي كنت أبحث عنه. لقد وصف فوغان كيف أنه في عام ١٩٦٥ اشترى لعبة للضحك مع صديق في دور النقاهة. وعندما أعلن الراديو عن وفاة دوروثي كلبارن الصحفية سألوا اللعبة التي تكتب ما إذا كان هذا صحيحاً وكانت النتيجة أن اللعبة سجلت أنها ماتت مسمومة. وبعد عشرة أيام تبين من التحقيق أن هذا صحيح.

وإحدى (الأرواح) التي اتصلت بلوحة اللعبة قالت إنها زوجة قبطان البحر نانتو كيت، واسمها نادا. «وحينئذ - بدهشتي وخوفي - دخلت (نادا) داخل رأسي واستطعت أن أسمع صوتها يكرر العبارة نفسها عدة مرات». وعندما سألت لوحة اللعبة عن هذا جاء الجواب: «نتائج رائعة - التملك». وفي حضور صديق يفهم في مثل هذه الأمور كانت هناك روح تسمى (زد) جعلت فوغان يكتب الرسالة: «لكل منا روح بينما هو حي. فلا تدخلوا مع أرواح الموتى».

كتب فوغان: «وبينا أنا أكتب هذه الرسالة بدأت أشعر بطاقة تنبعث في جسمي وتدخل في عقلي. لقد طردت (نادا) و (زد). ولاحظ أصدقائي وجهي الذي كان متمقاً وذابلاً وفجأة تلون. وشعرت بإحساس هائل بالابتهاج والحبور الجسماني. وازدادت الطاقة قوة وبدأ أنها امتدت خارج جسمي. وبدأ عقلي يشي في بُعد ممتد لا يعرف حدوداً في الزمان أو المكان. ولأول مرة بدأت أشعر بما يجري في عقول الآخرين، ولدهشتي بدأت أشعر بالمستقبل من خلال نوع من الوعي الممتد...» ولحظة فوغان الموجزة عن (القوى الممتدة) أفضت به إلى أن يشتغل في برنامج عم البحث في قوى (التنبؤ) وقد جرى وصف نتائجه فيما بعد في الكتاب.

وتذكرنا عبارة (وشعرت بإحساس هائل بالابتهاج والحبور الجسماني) بما قاله نيتشه عن (الشعور الذي لا يوصف بالحبور والابتهاج) وبتعبير بينت عن (تدفق قوة هائلة). وهنا تكون لدينا حالة فيها الزيادة الخاصة بالطاقة في حالة التهيج الجنسي لا تحمل الحس النمطي بالقوة والاستثارة فحسب بل يبدو أنها تحمل أيضاً ملكات نفسية مثيرة - التخاطر ومعرفة المستقبل.

وهذا يطرح نقطة مهمة. فمعظم الحالات السجلة عن التخاطر والتنبؤ تحدث بدون جيشان الوعي المرتفع. والأمر نفسه ينطبق على الوساطة والاتيان بالمعجزات والبصيرة الثانية والارتعاش الجسماني من الطاقة وما إلى ذلك. ومن ثم يبدو أنه إذا كانت مثل هذه القوى تعتمد على (المراكز العليا)، فهناك طريقتان لإجراء الاتصال: إما ارتقاء الدرج أو من خلال شكل من الدورات القصيرة التي تربط النفس العليا والنفس اليومية دون أن تعي النفس اليومية بهذا. الطريقة الأولى هي طريقة جورديف والطريقة الثانية هي طريقة راسبوتين.

والملكة المجهولة يبدو أنها مركبة من الاثنين: ومضة وعي تمتد بدون حث من الطاقة. ومضة الروائي الفرنسي بروسث الشهيرة عن (تذكر الأشياء الماضية) حدثت عندما كان يستطعم كعكة مغمسة في الشاي وفجأة أصبح واعياً (بحقيقة) طفولته.

كتب: «... إن لذة منتقاة قد أحاطت بجواسي... وفي التو أصبحت تقلبات الحياة غير ذات موضوع بالنسبة لي، فأخطارها غير ضارة وقصراً وهم... وكففت الآن عن الشعور بالاعتدال والفساء». ويصف الفيلسوف الأمريكي المعاصر وليم جيمس تجربة ماثلة فيقول إنها بدأت. عندما تذكر فجأة تجربة ماضية وأن هذه التجربة «تطورت إلى شيء أبعد... وتحولت هذه التجربة بدورها إلى شيء أبعد أيضاً وهكذا إلى أن خفتت العملية وخلفتني مندهشاً للرؤية الفجائية للسلاسل المتزايدة للحقيقة البعيدة...» ويظهر جيمس المسألة كما لو كان قد أنتزع من الهواء وارتفع إلى حيث يستطيع أن يري الحقيقة منتشرة بشكل متسع. وحدث شيء مماثل للمؤرخ أرنولد توينبي عندما جلس بين آثار قلعة ميسترا فانتابته رؤية فجائية عن (حقيقة) اليوم التي دمرها فيه البرابرة؛ وأنتجت التجربة شعوراً بالتاريخ كبانوراما وأفضت إلى كتابة مؤلفه (دراسة للتاريخ)^(٣). ويبدو أن كتاب (انبيار وسقوط الامبراطورية الرومانية) لجيبون هواستلهم لتجربة ماثلة في الكايبوتول.

وربما كان أكبر شيء مثير عن هذه التجارب هو الشعور بالأمان، الشعور (بأن كل شيء على ما يرام)، وهذا يرجعنا إلى المشكلة الرئيسية الخاصة بالوجود الإنساني نفسه، لا الخاصة بهذا الكتاب وحده. إن شعوراً بالأمان هو شيء جوهرى بالنسبة للحياة الواعية كلها. وأسعد لحظات الطفولة مليئة بالأمان؛ وقد كتب جون بتجان عن الأمان الذي (يأخذ بزمامي وأنا أنساق إلى أرض الأحلام، الأمان داخل رداء نومي). والحياة تتأكل هذا الأمان الجميل تدريجياً - وإن كانت لا تتأكل أن الأمان يمكن عليه تحقيقه. وهذا هو السبب الذي من أجله نعمل ونخطط ونشتري البيوت بالرهن ونؤثثها بأغلى المفروشات؛ وهذا هو السبب الذي من أجله تفتح حسابات في البنوك للتوفير وتضاعف الممتلكات. وبالرغم من أننا نعرف ما هي الزلازل والكوارث والموت الفجائي فإن العالم من حولنا لا يزال مظهر مريح بالدوام؛ وإذا نمت وأنا أشاهد التلفزيون فان كل شيء أجده مستمراً كالمعتاد عندما أستيقظ.

ولكن إذا كنا أمناء، علينا أن نعترف أن هناك شيئاً خطأ مع هذا الفرض الأساسي. إن الطفل يرى العالم من خلال أمان ذراعي أمه، وتبدو الأشياء معقولة بشكل لطيف. وقد يبدو العالم محيراً بالطبع، ولكن كل حيرة يمكن حلها. والألغاز هي مشكلة البالغين. وبعض الناس يجنون أن يقضوا حياتهم في هذه الحالة الهادئة للعقل، وهناك آخرون يصبحون واعين بأن الحياة ليست وردية كما تبدو. إن الناس يموتون بمرض أو بمحادثة أو بسبب الشيخوخة بعد سنوات من التآكل البطيء. وما هو أسوأ أنه يبدو أن هناك شيئاً غريباً للغاية عن الكون. إنه يناقض فرضنا أنه لا توجد أسئلة بدون أجوبة. إن الأسئلة الكبرى لا تبقى بلا حل فحسب؛ بل يبدو أنها مستعصية على الحل. إننا نستطيع حتى أن نكون (مفهوماً) لحلّ السؤال: «متى بدأ الكون؟» أو «إلى أين ينتهي؟» «إن لكل شيء على الأرض بداية أو نهاية؛ أما المكان والزمان فهما بلا بداية أو نهاية.

(٣) من أجل المزيد من بحث هذه الأمثلة يمكن الرجوع إلى كتابي (الخوارق).

واللغز نفسه يواجهني عندما أتفكر في نفسي. إن شهادة ميلادي تقول لي إن لي بداية؛ لكن الفكرة تنتهك إحساسي بالمنطق حتى أنني أميل - على نحو طبيعي - إلى الاعتقاد في (شيء) يسبق مولدي: ربما وجود غير مجسم في نوع ما من السماء أو سلسلة كاملة من التجسيديات السابقة. وأنا أعرف أيضاً من الملاحظة أنني سأموت. إنني (أستطيع) أن أتخيل ببساطة (الحب) لأن هذا يحدث لي كل ليلة في السرير؛ ومع هذا فإن منطقي يرفض فكرة الانتهاء. إنه يطالب بنوع (ما) من الاستمرار.

فكيف يمكن للناس أن يستمرّوا في الحياة بدون أن يفكروا جادين في مثل هذه الأسئلة؟ إن الجواب مقلق: لأن تفكيري (مقيّد) بالأشياء الأليفة. إن العقل الإنساني لا يبدو أنه قد صنع حقاً من أجل التفكير. وأنت تدرك إذا حاولت أن تفكر في مشكلة تجريدية بسيطة، مثل لماذا تعكس المرأة وضع جانبيك الأيسر والأيمن ولا نعكس وضع رأسك وقدميك؟ إن العقل يحاول أن يلتقط المشكلة ثم ينزلق كسيارة على الثلج.

ويبدو الأمر كما لو كانت هناك قوة جاذبة تشد عقولنا للوراء إلى هنا والآن مثل ما تشدنا ثانية الأرض عندما نقفز. أنت تحاول التركيز على المشكلات الكونية الكبيرة وبعد لحظة تجد نفسك تتساءل عما إذا كنت قد وضعت طابعاً على الظرف. والفلاسفة الذين يعون هذه المشكلات يملون إلى القول بأن الحياة الإنسانية قاسية ولا معنى لها. ويصعب على العقل المنطقي أن يختلف.

ويفسّر هذا لماذا يتشكك معظم الناس لفكرة البعث والحياة بعد الموت. فهم يرون أن مثل هذه الأفكار هي عرض آخر للعجز الإنساني على مواجهة الواقع. إننا مسحوبون دون أي أمل شعورنا البيولوجي بالأمان - كالأغنام والفر إلى أن تساق إلى المسلخ وتسم رائحة الدم. ونحن محب أن نقنع بأن الأشياء ستستمر دائماً كما هي الآن. وهكذا تعد معظم الأديان أتباعها بحياة أخرى مليئة بكل الرغبات. ويستطيع الفلاسفة أن ينفذوا من خلال حلم اليقظة لكهم ليس لديهم بديل مقنع.

إذا اسنطعنا أن نسحب عقلاً من تفاهات الحياة اليومية وفكرنا بصدق في هذه المشكلات فعلياً أن نعترف بأن المتشائمين لا يقدمون ثقة أزيد من التي يقدمها (المؤمنون الحقيقيون). فمعظمهم يستغل تشاؤمهم كاعتذار عن عدم التفكير. وللهولة الأولى يبدو هذا معقولاً حيث أنهم يؤمنون بأن التفكير لا يفضي إلى القناعة بأن الحياة بلا معنى. ولكن الغريزة العميقة تقول لنا بأن الإنسان إذا كفّ عن التفكير فإنه يكون قد أطاح بأعظم مزاياه. وهناك شعور غريب بالتطور المتوقف عند معظم المتشائمين كما لو كانوا قد كهوا عن أن يكونوا سراً.

وبجانب هذا لا نجد أباً من المتشائمين - شوبنور. أندريه، آرتساخسيف، بيكيت، سارتر - قد تناولوا حقاً المشكلة الرئيسية عن الوجود الإنساني. حسناً، لسبب لدي فكرة من أين حثت أو إلى أين أمضي ومعظم المعاني التي أراها من حولي هي مجرد قباكات. إنني لست سوى جواد كليل المصير، يتهادى بصبر، لا أفعل إلا ما فعلته بالأمس واليوم الأسبق تقريباً. وأرى الشر جميعاً من حولي بنصرفون بالطريقة نفسها. ومع هذا يبدو أن

هناك منطقاً معيناً (بالفعل) عن الوجود الإنساني خاصة عندما يتولاني شعور بالفرضية. عندما أعيش شعوراً بالشدة والتركيز فإنني ألمح المعاني التي تلوح أكبر من (الأنا) الذي أعرفه. ولكنني حينئذ يتتابني شعور بأن (الأنا) الذي أعرفه هو نوع من شبه المعيار المعاصر. وفوق كل شيء أبدأ في الإيمان بأن المتشائمين يخطئون خطأ شنيعاً عن قواعد اللعبة. (المعنى) إنما ينكشف بنوع من النور الكاشف الباطني. (وهذه طريقة أخرى لتقرير بصيرة هوسرل: الإدراك الحسي قصدي) كلما زادت حدة الشعاع ازداد انكشاف المعنى. والإنسان الذي يحدد في العالم بقناعة كئيبة بالهزيمة لن يرى إلا معنى. واهناً كما يتوقع.

هناك شيء عثبي خاص بالوجود الإنساني. أنت تجد نفسك محاطاً بمعان (صلبة) وكلها تافهة. ولكن عندما تحاول أن ترفع عينيك إلى ما وراءها فإن كل اليقينيّات تتحلل والأمر محيرٌ بمثل ما يتوجه الإنسان لعبور باب أمامي لبناء فخم ويجد أنه مجرد واجهة لا شيء وراءها. والشئ الغريب هو أن الواحة تبدو صلبة بما فيه الكفاية. وهذا العالم حولنا يبدو بالتأكيد متأسكلاً ومنطقياً. ومن الصعب الإيمان أنه جزء من نكتة سخيفة أو كابوس.

وهذا يرجعنا إلى أكثر الأسئلة أساسية: هل يمكن لنظرية سلم النفوس أن تكون مفتاحاً لا (للقوى النفسية) وحدها بل أيضاً للسؤال الأساسي عن الوجود الإنساني، اللغز الذي أتعب الفلاسفة واللاهوتيين والمفكرين (الوجوديين)، لقد أعلن الصوفية أنه في ومضات الكشف يصبح الجواب على سر الوجود واضحاً فجأة. ولقد عبروا مراراً عن ماهية هذا الكشف بكلمات مثل «كل شيء على ما يرام» أو «كل شيء رائع». وهذا صعب تصوّره - بل مستحيل في الواقع. ولكن ليس هذا بالضرورة اعتراضاً أقصى. إننا لا نستطيع أن نتصور اللاتناهي، ومع هذا اخترع جورج كانور حساب اللامتناهي الذي ثبت أنه أداة قيمة. إننا لا نستطيع أن نتصور فكرة أن الأحداث القادمة قد حدثت من قبل بشكل ما، ومع هذا فإن حالات التنبؤ تبين أنها حقيقية.

إن نظرية «سلم النفوس» تلقي الضوء بالتأكيد على مشكلات رئيسية أخرى للوجود الإنساني: مثلاً، مشكلة العبث أو اللامعنى. إن العالم من حولنا يعج بالنشاط اللامتناهي، وهذا يدهشنا باعتباره معقولاً. ولكن هناك لحظات من التعب أو الاكتئاب ينكسر المعنى فيها من تحتنا مثل الثلج الهش. ويقارنه كامو بمراقبة إنسان يقوم بحركات في غرفة التليفون ولكن دون أن تتمكن من سماع كلمة مما يقوله. ونحن نتعجب فجأة إذا كانت علاقتنا الكلية بالعالم قائمة على سوء فهم. إن الإنسان يجب أن يعتقد أن له علاقة تكافلية مع العالم، ولكن ربما كان العالم لم يسمع به إطلاقاً. وسارتر يسمي مثل هذا الشعور (الغيبان) وهو يحدث إذا حدثت في شيء إلى أن ينحل شعورك (بمعرفته) وبصبح غريباً ومعادياً. وكما يرى سارتر يحدث هذا لأن الإنسان يدرك فجأة الحفيظة عن عدمه. وعبرت سيمون دي بوفوار عن هذا في فقرة من كتابها (فيروس وسينباس): «لقد نظرت إلى نفسي عثاً في المرأة وقلت لنفسي حكائي، إنني لا

أستطيع أن أستوعب نفسي كموضوع كلي، وإنني أستشعر في نفسي الفراغ الذي هو نفسي، إنني أشعر كأنني لسب موجوداً». وتري نظرية سلم النفوس أن هذا بالضبط ما يمكن أن يتوقعه الإنسان في حالة الضغط الباطني المنخفض. ولكنه (ليس) جزءاً هروبياً من الحالة الإنسابية، فلا تزال هناك حقيقة أساسية عن الكون. ففي حالات التوتر والإثارة والخلق فإنني أرتقي (السلم) وأصبح واعياً في التو بأن اللامعنى كان وهماً. لأنني (أستطيع) أن «أحكي لنفسي قصتي» وألتقطها كحقيقة؛ (أستطيع) أن أنظر في مرآة وأعيش تجربة نفسي كموضوع كلي. وهذا هو المقصود بالكلمة المجهولة.

وهناك طريقة أخرى للتعبير عن النتيجة نفسها هو أن نقول إنه عندما يكون ضغطي الباطني منخفضاً يسيطر علي الوعي الإنسان الآلي وتصبح الحياة غير حقيقية. إن الشعور بتفرد اللحظة الحاضرة مفقود، وتجد أن من الصعب التفرقة بين شيء قد عشته وشيء قد قرأت عنه فحسب أو حلمت به فقط. في هذه الحالة، أصبح منفصلاً عن حياتي، كما لو كان هناك حائط زجاجي، إذ أنصت للموسيقى فإن الإنسان الآلي هو الذي يسمع؛ إذا أكلت فإن الإنسان الآلي هو الذي يتذوق الطعام. وكلما ارتفعت أعلى فوق (السلم) ازدادت قدرة علي أن أعيش حياتي.

ومن المهم أن تدرك أن المعنى يمكن أن (يجرنا) فوق السلم، وعندما يحدث هذا نشعر بإعادة الحياة والحيوية والطاقة. ويقدم لنا الجنس مثلاً صارخاً: فحالة التعب والكلالة يمكن أن تولي بباعث جنسي فحائي. والنتيجة نوع من (غزو) المعنى الذي يرفعنا إلى حالة أكثر تركيزاً أو غرضية. والإنسان الذي يكشف هذه الحيلة البسيطة - مثل كازانوف - قد يمضي حياته كلها يكررها. وهو يعتقد أن هذا هو الجنس الذي يهتم به؛ والحقيقة أنه (التجربة المركزة)، اللمحة الوقتية من جانب نفسي أقل من المتوسط. ولكن كما كان يفشل في التقاط المحتوى - المعنى للبصيرة فإنه يتردد ثانية إلى مستوى أدنى.

ومن جهة أخرى عندما يتم التقاط المحتوى (بالفعل) فإن (الحيلة) يمكن استخدامها لتدقيق احتياطات الطاقة الحيوية. وهذا شيء يفهمه جوردنييف جيداً. وهناك آخرون - مثل أوري جيلر ومانيو ماناخ - قادرون على تحقيق اتصال بشكل آخر للطاقة يمكن استخدامه بشي المعالق أو جعل الأبر المغناطيسية تنحرف. وطبيعة هذه الطاقة لا تزال غير مفهومة، ولكن لا شك إطلاقاً في وجودها.

ومن الإفراط في الظن أن نأمل أن نستطيع أية نظرية مفردة أن تغطي الحقل الكامل (للخوارق). في عام ١٧٨٤ نجد الأخوة بويسجور - تلاميذ العالم الشهير الدكتور مسمر - قد أخذوا بظاهرة التنويم المغناطيسي وهم يجربون (المسارات المغناطيسية) على راعٍ صغير فسقط مغشياً عليه. ومنذ ذلك الوقت استخدم التنويم المغناطيسي على نطاق واسع في العلاج الطبي؛ ومع هذا لم يستطع أحد أن يفهم طبيعته.

وفي عام ١٨٤٨ حدث اهتمام عريض بهذا الموضوع وأصبح يعرف باسم النزعة الروحانية، وقد وقع (الوسطاء) مغشياً عليهم

وكانوا قادرين على الاتصال بأرواح الموتى؛ وكان يستولي عليهم (مرسد) من العالم الآخر. وأنشئت جمعية البحث النفسي لدراسة هذه الظواهر علمياً، وحاول علماء بارزون - من أمثال الأستاذ ارست بوزانو والأستاذ شارلز ريتشيت وف. و. ه. مايرز - وضع نظريات تفيد كأساس (لعلم نفسي).

ومما هو جدير بالذكر أن الكثير من الظواهر - من التنويم المغناطيسي إلى الوساطة - تتضمن (مستويات أخرى) من الشخصية.

وبطبيعة الحال، لا تُعدّ فكرة سلم النفوس نظرية. إنها مجرد وصف مقنع لما يحدث عندما نشعر بأننا (ازدنا حياة)، ولكن لما كان هذا الشعور بالحيوية المتزايدة والوعي المرتفع يتضمن أيضاً شعوراً (بالقوى الممتدة)، فإنه قد يكون جديراً بالاهتمام أن تبين مدى فرضية (السلم) لترتبط بالحقائق المعروفة.

وهذا يطرح مشكلة أخرى.. في العشر سنوات الماضية أو نحو ذلك كان هناك (انفجار معلومات) في الحقل النفسي، حتى غدا من الصعب معرفة من أين بدأ أو أن أي كتاب شامل حول الخوارق تتوقع منه الآن أن يغطي موضوعات عديدة مثل التخاطر بين النباتات، الجراحة النفسية، الوساطة المرافقة، التغذية البيولوجية للكمبيوتر، الشخصية المتعددة، التعاصر في الزمن، والأطباق الطائرة والدروب المشوشة و (الديانات القديمة).

ولقد اخترت تناولاً بعدُ بالنسبة لي تناولاً مباشراً. فعندما مات توم لبتردج عام ١٩٧١ كان قد ألف تسعة كتب عن موضوعات (الخوارق) ولا زال كتاب منها مخطوطاً. وتغطي كتبه دائرة متسعة؛ وبين الحين والحين تأمل في كل الموضوعات الكبرى التي تخص البحث المتعلق بالخوارق.

وعندما كتبت كتاب (الخوارق) لم أكن أعرف إلا كتابه الأول (الساحرات: بحث في ديانة قديمة) ولم يحدث إلا فيما بعد أن اكتشف مؤلفات له مثل (الشبح ومسير الغوص في الأعماق) و (الأدراك الحسي الخارق) وعشت تجربة مثيرة لعقلية من الطراز الأول تجمع بين النزعة الشكية والخيال وحسّ بالفكاهة. وعندما عرفت أنه يعيش بالقرب مني في ديفوله بعثت إليه بحطاب وأرسلت إليه نسخة من كتابي (الخوارق) فردت على زوجته مينا قائلة إنه قد مات من عام مصي.

وكلما ازدادت قراءة في أعمال لبتردج ازدادت قناعة بأنه الباحث الوحيد في القرن العشرين الذي قدم نظرية شاملة ومفصلة عن الخوارق. ولما كانت هذه النظرية مبعثرة على نسعة كتب فإنها لا تزال مجهولة للقارئ. وهذا هو السبب الذي يجعلني أخصص القسم الأول الطويل من هذا الكتاب لمؤلفاته وأفكاره. وهذا يؤدي هدفاً مزدوجاً هو تقديمه إلى القراء الذين لم يتعرفوا عليه بعد وإثارة معظم الموضوعات التي سيتم بحثها في بقية الكتاب.

وسيمكنني هذا من أن أسدد ديننا بالشكر لعقلية من أبرر العقلليات اتساعاً وأصالة في علم نفس الأعماق الحديث (★).

(★) مقدمه كتاب «حمانا الحما» الذي يصدر في الشهر القادم عن دار الآداب